الخطاب... والقومي

الطاهر لبيب

أن تكون «قوميًا» تنتمي إلى «قوم،» بما في الانتماء من عضوية الطبيعيّ، فهذا لا يحتاج منكَ إلى جهد. الجهد هو في المرور من معطى الطبيعة إلى تعبير الثقافة. الصعوبة كلّها في هذا المرور، وكذلك اللبْسُ كلّه. عربيّ، عروبيّ، قوميّ عربيّ... حالاتٌ وعباراتٌ موصوفة، في ما جرى من حديث الناس، يتجاذبها تجريبُ الطبيعة وممكنُ العبارة. قد تكفي النبرةُ لتحويلها من «مرتبة» إلى أخرى: «سَجِّلْ أنا عربيّ،» مثلاً، في أفواه الجماهير المتظاهرة. وهي في أغلب حالاتها سياقية: قد تكفي المشاركةُ في مؤتمر لتحويل كلّ المشاركين فيه ـ خلال فترته ـ إلى «قوميين عرب،» منهم مَنْ يعود إلى موقعه سالمًا بعروبةٍ لا قومية، ليكون «مجرد عربيّ» في بيته أو دون ذلك.

أن «تَخْطب» على الورق أو في الناس، بما في «الخطبة» من أوجه البلاغة، فهذا مما تتيحه لك طبائعُ اللغة (لسانيًا، كلُّ ما يقال خطاب). لكنّ الخطاب إذا كانت مرجعيتُه خارج بنية القول، في الفضاء الاجتماعيّ، أصبح التماسكُ شرطًا في البحث عن معانيه، باعتباره مسارًا للفكر نحو الحقيقة. هذا التماسك (cohérence) يصبح هاجسًا معرفيًا عندما يتخصّص الخطابُ، أيْ عندما ينضبطُ في نسقٍ معرفيّ (أو في «براديغم»). والقوميُّ، معرفيًا، هو نسقٌ من الأنساق، أو هكذا كان يجب أن يكون.

الخطاب والقوميّ ملتبسان. وليت «الواو» فَصَلَتْ بينهما، بدءًا، قبل الربط بين نعت ومنعوت. لو كانت «الواو» لأثارت أسئلةً محرجةً تُحوِّل القولَ القوميَّ إلى خطاب. من هذه الأسئلة ما يتصل بتماسك الخطاب، ومنها ما يتصل بإنتاج المعنى. وهما أمران قديمان: فمنذ فلاسفة اليونان والخطابُ يحدِّده تماسُكه، سواء كان همُّه مراعاةَ منطقه الداخليّ (لوغوس) أو كان همُّه الإيهامَ والإغراءَ كما هو الحال عند السفسطائيين. أما العرب، أهلُ البيانِ وتصريفِ القول، فالمعنى من بلاغتهم وأسرارها. كان هذا قبل أن تتبرّج ألفاظُ المتأخّرين وقبل أن تستبدّ الألفاظُ بالمعاني. كان هذا قبل أن تتوالى أزمنةُ التاريخ المتعاقبة على تفكيك العلاقة بين الدّالّ ومدلوله، في لغةٍ فَقَدَتْ صرامتَها فتسيَّبتْ معانيها.

عندما واجَهَ المعاصرون العرب مفهومَ الخطاب في الفكر الغربيّ، وعندما حاولوا ـ بوجه خاص ـ سحبَ تساؤلاته الإبيستيمولوجية على «أركيولوجيا المعرفة» في ثقافتهم (فوكو محفِّزٌ أول)، فوجئوا من دون شكّ بالتباعد بين حقلين: حقلِ القول وحقل المعنى. للأسف، تصرَّفوا وكأنّ منطق المعنى من منطق القول وأَوْجدوا «الخطابَ العربيَّ المعاصر،» بطوله وعرضه، لتوسيع إمكانية الربط بين المنطقيْن. الأوروبيون قالوا، بدءًا، «خطاب المنهج،» وقالوا الخطاب الفلسفيّ والخطاب العلميّ وخطاب الحداثة. الخطاب عندهم ـ ما داموا في حقل المعرفة ـ مرتبط بنسق. وإذا قيل «الخطاب الغربيّ» فلا شك أنّ القائل عربيّ أو هو مَنْ في وَضْعِه، لأنّ الخطاب عنده لا ينفي تداخُلَ المرجعيات والأنساق والأزمان وما كان وما سيكون.

وضَعَ الروّادُ معالمَ قاسوا بها أبعادَ الفكر القوميّ. ومهما عَطَّلَ التاريخُ مدلولاتِ قولهم وعَلَّق طوباوياتهم فَهُمْ كانوا، قطعًا، أكثرَ حرصًا ممن جاء بعدهم على إدراج معارفهم في بناء خطابهم ـ خطابهم الذي بدأ يتماسك، داخليًا، في رؤيته وفي أجهزة مفاهيمه، وبدا منتِجًا لمقولات قابلةٍ للتداول في أوساطها. بهذا المعنى كان لهم خطاب، بقطع النظر عمّا يؤْخذ عليه. المهم أنّه لم يكن في عهدهم ذلك المشهدُ الذي يكون فيه صاحبُ المعرفة في «موقفٍ» بين معرفة لاقومية وقومية لامعرفية.

وأصل المشهد أنّ الفكر العربيّ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، عاشَر الإيديولوجيا على حساب المعرفة. قلّةٌ هم الذين عانوا، حقًا، صعوبةَ المعادلة. يكفي أن نعود، مثلاً، إلى إنتاج مركز دراسات الوحدة العربية الذي يلخِّص هذه المعاناة ولا يُستغنى عنه في رصد أنماط الفكر القوميّ وتساؤلاته ومنعطفاته، إذ بالإمكان، بوجه خاصّ، تتبُّعُ انسحاب بعض المقولات إلى تخوم الخطاب القوميّ أو إلى خارجه بعد أن كانت مركزيةً فيه؛ وبالإمكان كذلك

الخطاب... والقومي

تتبُّعُ ما تسلّل، عبر النقاش، إليه من مقولات ما كان يتّسع لها، من نوع أنّ «قوميةَ العربيّ من وطنيّته.» وللتاريخ، فإنّ هذه المقولة الانعطافية كانت للمغاربة مساهمةً في بنائها.

هل هناك الآن «خطابٌ قوميّ»: خطابٌ **و** قوميٌّ في الوقت نفسه؟ الجواب: لا. مبدئيًا، ما هو قوميّ، شأنه شأن ما هو ماركسيّ أو إسلاميّ، هو نسقٌ يَشْمل الرؤى والمعارفَ والقيمَ المترابطة، على وجه التميّز والتخصيص. مبدئيًا، القولُ القوميُّ قابلٌ للتحويل إلى خطاب. ولقد كان خطابًا في مرحلة سابقة، بالمعنى الذي أشرنا إليه. أما غيابه اليومَ فليس لأنّه تراجَعَ، لأسباب خارجة عنه، أو بسبب الأوضاع، كما يقال، وإنّما لأنّ بنيته المعرفية تكسّرتْ. ومعلوم أنّ هذا ليس خاصًا بالخطاب القوميّ، ولكنّ هذا الخطاب معرَّضٌ أكثر من غيره لتدخّل عناصر التفكيك المعرفيّ: التّقاوُلُ والتناصُّ فيه لا حدود لهما، ومَداخِلُه والقائلون فيه من كلّ حدب وصوب. من الصعب أن تكون ماركسيًا، حتى هذه الأيام، بدون حدودٍ دنيا من المعرفة بالماركسية؛ ولكنْ يبدو من **غير** الصعب أن «تُدلي بدلوك،» في اتجاهات معاكسة أو مشاكسة، باعتبارك قوميًا بالطبيعة وباعتبارِ ما تبني عليه هذه الطبيعةُ من مواقف. المرور بالتساؤل المعرفيّ يبدو غيرَ ضروريّ هنا لأنّ الموضوع مطروحٌ لجميع من يَنْتمون إلى هذه الأمة! ولهذا كان الكلامُ، والكلامُ على الكلام في ما هو من «شؤون الأمة،» أمرًا مشاعًا، سهلاً. مَنْ منّا لا يسمع أو يَقْرأ «خطبةً» يوميةً استنهاضيةً أو تيئيسيةً في القومية العربية؟ ولا محصّلة لما يقال أو يُكتب، لأنّ من تسويات الأوضاع العربية تسويةَ الآراء فيها. المشهد حيّ ومباشر: أغلبُ ما تراه على الشاشات مَشاهدُ وَرَثَةٍ يتناهبون إرثًا «قوميًا.»

لا يُمْكن أن يتماسك خطابٌ أو أن ينتج المعنى في وضع كهذا. وإذا كان الحسُّ المشترك هو الطاغي، من وجهةٍ معرفية، فإنّ مما ساعد على التفكيك رَبْطَ الخطاب بأحداثٍ لا تنتهي، ولا تنتهي تفاصيلُها. فكلُّ حدثٍ «على الصعيد العربيّ،» مهما ضعفتْ دلالتُه العابرة، هو فرصة للقول! قد يكون السؤال «القوميّ» متعكفًا بغضب رئيس دولة، أو بخصوص تأخير زيارته إلى بلد «شقيق.» وهناك، دومًا، مَنْ يجيب عن سؤال كهذا. لم يتفكّك الخطابُ القوميُّ بسبب وجود هذه الأحداث وإنّما بسبب **انفتاحه** عليها. ولقد نجحتْ وسائلُ الإعلام لا في تحويل أصحاب الخطاب القوميّ إلى خطباء فحسب، وإنّما، أيضًا، في تحويلهم إلى مُفْتين في كلّ شيء.

اختصارًا، ما يَسُود اليومَ من عناوين «الخطاب القوميّ» قد لا يعني، في واقع الأمر، أكثرَ من أيّ قولٍ أو كلام موضوعُه الشأنُ العربيُّ ومنحاه الدفاعُ عن هذا الشأن. البقية اختلافٌ في اللهجة والمواقف. ومفروغٌ منه أنّ القول بغياب الخطاب القوميّ لا يعني أنّ ما ليس موضوعًا لهذا الخطاب الغائب ليس قوميًا بالضرورة. أغلبُ الناس يعبِّرون عن قوميتهم ويدافعون عنها بدونِ معرفةِ نسقِ خطابها، إنْ كان لها خطاب. وقد يتعمّد البعضُ منهم إعلانَ خروجه عنه. ليس، إذًا، في نفي **الخطاب** القوميّ، كخطاب، أيُّ نفيٍ **لقومية** القوميّ. كلُّ ما أردتُ تأكيدَه أنّ القوميين اليوم بلا خطابٍ قوميٍّ، سواء كانوا مِنْ يتاماه أو ممّن يريدون بعثَه حيًا أو ممّن لهم مشروعُ تجديده.

إذا كان هذا، فما يعني «تجديدُ الخطاب القوميّ»؟ ماذا نجدِّد، عمليًا؟ ومَنْ يجدِّده؟ وكيف؟ في هذه الأسئلة سؤالٌ ضمنيٌّ قد يبدو إخراجُه منها غريبًا: لماذا نجدِّد؟ وهو يكون أقلَّ غرابةً إذا استحضرنا أهدافَ بعض «التجديد» التي حدّدتها نخبٌ سياسيةٌ وفكريةٌ «تحديثيةٌ» في مجتمعاتٍ ما قبل حداثية. لقد كان تجديدُها أو تحديثُها ذا هدف أول هو إنقاذُ النخبة ذاتها لذاتها. لذلك كان من سمات الإنقاذ أن يكون التجديدُ في لحظاتِ أزمة. وهي أزمة تسمّى، في العادة، «أزمةَ مجتمع،» ولكنّها، أيضًا، أزمةُ نخب.

...

لماذا يجدِّد المثقفون العرب خطابَهم؟ عندما انتشرتْ طلائعيةُ الأدب والفنّ كان مَنْ ذَهَبَ إلى أنّها بحثُ البورجوازية الصغيرة عن حلّ لعقدتها. بدا هذا للبعض، إذّاك، مضحكًا، ولكنْ تبيَّن مع الزمن

القوميون اليوم بلا خطاب قومي، سواء كانوا من يتاماه أو ممن يريدون بعثه حيًا، أو ممن لهم مشروع تجديد

أنّ الرأي لا يخلو من فطنة إذا نُظر إليه من وجهةٍ ما تَبْحث عنه الطبقاتُ والفئاتُ الاجتماعيةُ من حلٍّ لمشاكلها الخاصة. المثقف العربيّ محظوظ، من هذه الوجهة، بما يجده من «صعيد عربيّ» يضع قولَه فيه، تلقائيًا ومباشرةً، مع افتراضِ أنّه يتحدّث باسمه وكأنّه يمثّله. وهو ما جعل القولَ يَغْمر ما هو فئويّ أو صنفيّ، إضافةً إلى غمرِ ما هو فرديّ أو شخصيّ. تساءل المثقفُ العربيُّ عن «انتلجنسيته،» في الثمانينيات ولمدة قصيرة، فاقترب قليلاً من موضعه كصنفٍ اجتماعيّ، قبل أن يتفرّع كلامُه، من جديد، في متاهات الوضع العام.

...

ماذا نجدِّد؟ لا يتجدّد إلاّ القديم. لذلك ففي التجديد، بالضرورة، علاقةٌ بالماضي القريب أو البعيد. التجديد لا يَحْمل معنى القطيعة. ولأنّه كذلك فله، إجمالاً، آفاقٌ وحدودٌ إصلاحية. وله، أحيانًا، آفاقٌ وحدودٌ ترميمية. التجديد، في معناه العامّ، إصلاحيٌّ بالدرجة الأولى. وهو، كجهد فكريّ، قرينُ الاجتهاد. ولأنّ روافده من أزمنة مختلفة، ما مضى منها وما يأتي، فهو مُعرَّض للتلفيقية. إنّ ما يسمى خطابًا عربيًا لا يُمْكن تقطيعُه إلاّ أفقيًا: عندئذ تَظْهر التداخلاتُ بين المرجعيات والأنساق، بمقولاتها ومفاهيمها المتناثرة على سطحه الممتدّ من جاهلية الحديث إلى ما بعد الحداثيّ... تمامًا كما قد تتناثر على أعمدة صفحةٍ واحدةٍ من جرائدنا اليومية.

بعضُ الذين أدركوا صعوبةَ الجديد في التجديد فَضَّلوا الحديثَ عن «التأسيس،» بما في ذلك التأسيسُ لخطابٍ عربيّ. مرّت فترةٌ تبارى فيها المؤسِّسون في كلّ مجال وباب. وها نحن نعود إلى التجديد. وهذا منتظَر، إذ كلّما عجزتْ مجتمعاتٌ عن التجاوز نحو الأمام تراجعتْ حلولُها إلى الوراء. حَدَثَ هذا للخطاب القوميّ، أيضًا، عندما التجأ إلى «الإسلاميّ.» وبقطع النظر عن المبرِّرات، سواء كانت ثقافيةً أو تحالفية، فإنّ هذا الاتجاه التجديديّ تعبيرٌ عن صعوبة الخطاب في المضيّ قُدمًا بدافع ذاتيّ. وبصورةٍ أعمّ، فالافتراض هو أنّه إذا خَنَقْتَ «عربيًا» خَرَجَ منه «إسلاميّ»! والعكسُ أقلُّ احتمالاً.

لا نجد لمفهوم القطيعة التي قام عليها تاريخُ الفكر الحديث أيَّ أثرٍ جديٍّ في الفكر السائد عربيًا وإسلاميًا، كما لا نجد تمايزًا واضحًا بين الأنساق الفكرية. لذلك لا نَعْرف، تحديدًا، ماذا نجدِّد. وما دام الأمرُ كذلك فليس مستغربًا أن يكون مِنْ بين مشاريعنا «تجديدُ حضاريٌّ» مثلاً. مشروع كهذا، مع نبل مقصده، يؤشِّر بوضوحٍ على اتساع ما يجب تجديدُه عبر الزمان والمكان، إلى حدود الاستحالة النظرية والعملية. ويبدو أنّ الخطابات العربية الكبرى ـ باعتبارها تصاغ عبر رصيد ثقافة كبرى ـ محكومٌ عليها بحمل مشاريع كبرى مستحيلةِ الإنجاز. الاستحالة هي ذاتُها محرِّكُ هذه الخطابات، حتى الآن.

...

مَنْ يجدِّد؟ ما دام التجديدُ على ألسنةِ كلِّ مَنْ قالوا وفي أقلام كلِّ مَنْ كتبوا، فهو لن يكون. التجديد ـ بمعنى إنتاج الجديد ـ هو إنتاجٌ للمعنى، وأغلبُ مَنْ يقولون ويكْتُبون يُنْتِجون اللامعنى. يمكن القولُ، بدون تردُّد، إنّ أغلبَ ما ننتجه اليوم ونتواطأ على تداوله، عربيًا، هو من قبيل اللامعنى. هذا باعتبار أنّ مجموع الإنتاج «نص» واحد، أو هو جملةٌ طويلة لا تنتهي. بهذا يكون، في مجموعه، كبيْت امرئ القيس «قفا نَبْكِ...» عند الجرجاني، في **دلائل الإعجاز**، لمّا أعاد توزيعَ ألفاظه توزيعًا أراد منه توضيحَ غياب المعنى. وقد لا يختلف «الخطابُ» عن ذلك، لما فيه من توزيع المقالات توزيعًا لا ينتظم بسبب التكرار والتمطيط والتنافر والتناقض والفراغات وما لا يُحيل على مدلول. وأبرزُ ما يكون ذلك في جملةِ ما يُقال ويُكتب، كمادةٍ خام، في وسائل الإعلام العربية. كما قد يكون في كتاباتٍ يقوم تناسلُها على مبدإ «التكرير.»

وللتوضيح: ليست «في الإعادة إفادة،» خلافًا لما يُقال، لأنّ الفائدة ـ إنْ كانت ـ تكون خارج إنتاج المعنى. واللامعنى هو، تحديدًا، عدمُ إنتاج المعنى.

وإذا كنّا لا نرى اللامعنى فلأنّنا تعوّدنا البحثَ عن المعنى. كلُّ آليات الفهم، بدءًا بالنحو، وُضعتْ لإدراك المعنى. ولعلّه حان الوقتُ، أمام انحلال المعاني، أن نوجدَ آلياتٍ لكشف اللامعنى ولمحاصرته. أمّا إجرائيًا، فليس هناك غيرُ تمنّي أن تكفّ أغلبُ الألسنة والأقلام عن القول والكتابة! وإذا كان هناك «تشهيرٌ» فليكن بمُنْتجي **اللامعنى** لا بمَنْ يُنتجون المعنى.

وليس هذا خاصًا بالعرب؛ فمَنْ يؤسِّسون الخطابَ أو يجدّدونه يُعَدُّون على الأصابع في كلّ لحظة من لحظات تاريخ أيّ مجتمع. قطعًا، لنا نصوصُنا المؤسِّسة أو المجدِّدة في تاريخنا العربيّ الحديث والمعاصر. فأوائل القوميين، فكرًا، أسّسوا خطابًا، بدون شكّ. أسماؤهم المعروفة لاتزال مرجعيةً صريحةً أو ضمنية. أما الأحياءُ فمنهم عندي، على سبيل المثال لا الحصر، عبد اللّه العروي، بدءًا بـ **الإيديولوجيا العربية المعاصرة** ومرورًا بنصوص أخرى يمكن القولُ إنّها أسّستْ لخطاب تاريخيّ عربيّ معاصر، مهما كان التوازي أو التقاطعُ أو الاختلافُ معه فهو غير قابل للتماشي أو التناسي. مساهمات هشام جعيط أو وجيه كوثراني، بل وبداياتُ الجابري وكلّ ما جرى مجرى المساهمة الجادة، تندرج إضافتُه في نسيج خطابيّ كان للعروي نسجُ خيوطه البارزة. وهذا معنى التأسيس، وإنْ كان نسبيًا، دائمًا. جهْدُ عبد العزيز الدوري في تحديث الخطاب التاريخيّ العربيّ سابقٌ وبنّاء. في مجالٍ أكثر حصرًا، ودائمًا على سبيل المثال، فَتَحَ هشام شرابي، هو الآخر، آفاقًا لخطاب عربيّ عن «البطريركية» ميزتُه الكبرى في تماسكه البنائيّ. لكنْ كيف لمثل هذه النصوص أن تؤثّر وقد غَمَرَها طوفانُ الألسنة والأقلام؟ لا نَعْرف ملامح المجدِّدين لخطاب قوميّ يَجْمع بين التماسك وإنتاج المعنى في اللحظة التي نعيشها، ولكنّنا نَعْرف ملامحَ المجدِّدين بلا تجديد.

...

كيف نجدِّد؟ من السذاجة الإجابةُ هنا عن هذا السؤال. أولاً، لأنّه سؤال قديم، بعضُ أجوبته المتأخِّرة أقلُّ تقدُّمًا من أجوبته القديمة. وثانيًا، لأنّ مَنْ لا يَعْرف لماذا نجدّد، وماذا نجدِّد، ومَنْ يجدِّد، لا يَعْرف كيف يجدِّد. المقصود، إذًا، إعادةُ طرح السؤال لا ارتكابُ خطإِ الإجابة عنه. هذا السؤال كان ولايزال تحديًا معرفيًا وقوميًا. وممّا يتضمّنه أنّ الوقت قد حان لأخذ مسألة «القطيعة» مأخذَ الجدّ: إلى متى ونحن بين ماضٍ ولّى ومستقبلٍ لا يأتي؟ وهو يتضمّن، أيضًا، إعادةَ المعنى إلى الخطاب القوميّ. وهذه مسألةٌ كبرى لأنّ بناء خطاب متماسك، يُنتج المعنى القوميّ، لن يعاني صعوباتِه الراهنةَ فحسب، وإنّما سيواجه أيضًا صعوباتِ التفكُّك العامّ بين الثقافة والمجتمع. وهو ما يعني أنّ الربط بين الخطاب والحركات والفئات الاجتماعية التي تَحْمله سيكون أصعب. ثمّ إنّ وراء كلّ هذا توجد اللغةُ الماسكةُ بكلّ الخيوط: تناسيها كارثةٌ مستمرةٌ في مجتمعٍ فَقَدَ وسيلةَ التعبير الأولى.

كيف نجدِّد خطابًا يكون خطابًا **و** قوميًا في آن واحد؟ سؤالٌ لا جوابَ عنه بدون التوقُّف عند حاجز «الواو.»

بيروت

الطاهر لبيب

أستاذ جامعيّ من تونس. مؤسِّس الجمعية العربية لعلم الاجتماع. يُقيم في بيروت، مديرًا عامًا للمنظمة العربية للترجمة. من مؤلّفاته: **سوسيولوجيا الغزل العربيّ**، و**سوسيولوجيا الثقافة**. إضافة إلى أعمال جماعية أشرف عليها أو حرّرها.